قبائل المغرب الأقصى قبل الاستعمار

إكراهات الترحال والنزوع إلى الاستقرار

محمد حبيدة(١)

شـكلت حركة القبائل، مظهرا أساسيا من مظاهر الحياة اليومية فى البوادى المغربية قبل الاستعمار. وقد ارتبطت هذه الحركة بطبيعة المعاش؛ إذ كان النشاط الرعوى هو عماد الاقتصاد فـى مناطق كثيرة من المغرب، ولاسـيما فى الجبال وفى أطـراف الواحات، وحتى فى بعض السـهول الصالحة للزراعـة. إن البحث عن الكلأ ومنابع الماء جعل أهـالى البادية يتحركون باسـتمرار لتلبية حاجيات بهائمهم، وفى الوقت نفسه للقيام بعمليات تجارية، يبيعون على إثرهـا منتجاتهم الرعوية، ويحصلون على منتجات زراعية. ومن جهة أخرى حددت طبيعة العلاقـة بـين الدولة والقبائل تحركات بشـرية كثيرة فى اتجاهـات جغرافية تحكمت فيها بالأساس سياسة التوازن القبلية التى نهجتها السلالات المتعاقبة على حكم المغرب.

ويمكن التمييز بين نوعين كبيرين من التنقل، الأول اقتصادى رعوى مرتبط بنمط العيش وإكراه البيئة، ومنتظم حول محاور جغرافية معينة، ووفق فصول السـنة، والثانى سياسى واجتماعى متصل بتقلبات الأحوال السياسية ونظام المجتمع.

١ - تنقلات اقتصادية: البحث عن الكلأ

يبقـى تنقل البشـر فى المجتمع المغربى قبل الاسـتعمار، كما فـى مجتمعات أخرى، مرتبطا إلى حد كبير بحاجة البهائم إلى التنقل لأجل الرعى. فقد قال المؤرخ الفرنسى فيرناند بروديـل عن حق، وهو يتحدث عن الاقتصاد الرعوى فى حوض البحر الأبيض المتوسـط: «كانت الحياة اليومية تجرى وراء العشـب الهارب»(٢). لقد شـكل الرعى نشاطا اقتصاديا

(١) أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن طفيل – القنيطرة.

(2) F. BRAUDEL, Grammaire des civilisations, Paris, 1993, p. 84.

راجع أيضا للمؤلف نفسه:

La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, 1966, t. 2 (La part du milieu), pp. 96 – 119.

رئيســيا لدى مجموعات كثيرة من القبائل فى بلاد المغرب الأقصى؛ إذ عاشــت باســتمرار أو فى أوقات معينة من الســنة وهى تتحرك صحبة مواشيها باتجاه المراعى والمياه. ويمكن مقاربة حركة البشر والبهائم هذه من خلال ثلاثة أنماط رئيسية:

أولا: حركة تردد يومية، على مساحة جغرافية محدودة، يتنقل ضمنها الرعاة بماشيتهم بين محلات إقامتهم والمراعى[١]. يقول القبطان الفرنســى بيريل الذى زار المغرب فى مطلع القرن التاسع عشر: «فى البوادى يرى المرء كل يوم قطعانا كثيرة من الخيول والبقر والأغنام ترحل صباحا باتجاه المراعى، وتعود فى المساء إلى القرية»[٢]. هل من الممكن قياس المسافة التى كان يقطعها الناس وماشيتهم؟ هذا سؤال صعب جدا، لأن النصوص لا تمكن من ذلك. لكن بعض المؤشرات تتيح إثارة هذا الأمر. صحيح أن كل قرية أو مجموعة قرى كانت تتوفر علــى أراض رعوية مجاورة لتلبية الحاجيات الضرورية من الكلأ والماء. هذا ما تُبينه نوازل العلمــى: «الأراضــى غير المزروعة، من مراعى وغابات، الموجــودة على مقربة من القرية، تبقى مجالا للبهائم، تذهب إليها فى الصباح وتغادرها فى المساء»[٣]. لكن حجم هذه المسافة تبقى رهينة عنصرين رئيســيين، همــا كمية الموارد الرعوية والمائية، وكمية الماشــية. هذا يعنى، إذا كانت الموارد ضعيفة والمواشــى كثيرة فإن التنقل يكتســى أهمية أكبر، إذ يقطع الناس صحبة بهائمهم مسافات كبيرة.

ويبقــى من الصعب دائما قياس تنقل من هذا النوع. فنحن نعثر فى النصوص مثلا على عبــارات مــن قبيل: «يبتعد الرعاة كثيرا عن قراهم بحثا عــن أراض للرعى»[٤]، أو «تأتى المواشى من بعيد بحثا عن الماء»[٥]. لكن فيما يتصل بالمدن – لأن أهلها أيضا كانوا يمارسون الرعى الترددى – نعثر فى المقابل على بعض القياسات الدقيقة. ففى مدينة طنجة، شمال

---

(١) حول مفهوم حركة التردد اليومى للبشر والبهائم، راجع:

N. DUNARE, Types traditionnels de vie pastorale dans les montagnes de l'Europe au Moyen Age et à l'époque moderne, Clermont - Ferrand, 1984, p. 58.

(2) J. CAILLE, Mission du capitaine Burel au Maroc en 1808, Paris, 1953, p. 109

(٣) عيسى العلمى، نــوازل، منشورات المجلس العلمى لفاس، الرباط، ١٩٨٣م، جـ ٢، ص ٢٨٦ – ٢٨٧. انظر أيضا محمد بن على المنبهى، فتــاوى، مخطوط الخزانة الملكية، رقم ٤٥٠٠، ص ٨٣.

(٤) أبو عبد الله السجلماسى، شرح العمل الفاسى، طبعة حجرية، فاس، ١٣١٧ هجرية، ص ١٠٤.

(5) A. BRIVES, Voyage au Maroc, 1901 - 1907, Alger, 1909, p. 574.

المغرب، كان الرعاة يقطعون مسافة مرحلة، أى ما يعادل خمسة كيلومترات ونصف الكيلو، لتمكين بهائمهم من الكلأ فى النواحى المجاورة للمدينة[1].

ثانيا: حركة انتجاع، أو ما يسمى بِـ «النجوع» فى لغة أهل المغرب الأقصى. وحركة التنقل هذه تكتسى أهمية كبيرة بالقياس إلى امتدادها الجغرافى، وترددها المنتظم والفصلى، شتاءً باتجاه السهول، وصيفا باتجاه الجبال. وما يثير الانتباه فى حركة الانتجاع هذه، التى غالبا ما تتم بالتراضى بين القبائل، السهلية والجبلية، هو الانخراط الطبيعى فى نظام إيكولوجى ينبنى على الحرص على الجمع بين هاجس الزراعة والحاجة إلى الرعى. ويظهر هذا الأمر فى احترام الرعاة، فيما يتعلق باتباع المسالك ومدة الإقامة داخل المرعى، للدورات الزراعية، خاصة فى المجالات الجبلية[2].

لقد حظيت حركة الانتجاع فى بلاد المغرب بدراسات عديدة فى بداية القرن العشرين من طرف الكثير من الجغرافيين والإثنولوجيين الفرنسيين. أما البحوث التاريخية حول هذا الموضوع فقد ظلت قليلة جدا، مع العلم أن ظاهرة التنقل الرعوى بين السهول والجبال قديمة قدم العلاقة بين الإنسان والمجال. فى هذا الصدد كتب الجغرافى الفرنسى جون سيليريى فى دراسة مرجعية حول «الانتجاع بجبال الأطلس المتوسط» : «هذه التنقلات الفصلية، التى دفعت القبائل مثل قبيلة بنى مكيلد فى الأطلس المتوسط لقطع أكثر من مائة كم بعيدا عن محلات إقامتهم، لا تكتسى فقط أهمية جغرافية فى الوقت الراهن (مطلع القرن العشرين)، وإنما تسلط الضوء على كل التاريخ المغربى»[3]. فالظاهرة إذن قديمة، ممتدة فى الزمن.

ليس فى نيتنا تقديم خريطة مفصلة لاتجاهات هذه التنقلات، فالأمر صعب جدا بالقياس إلى قلة المصادر، لكن من الممكن، وهذا أمر مهم جدا، رصد خصائصها الأساسية ومميزاتها الإقليمية. فالانتجاع يُظهر التكامل والتباين بين الأقاليم، من حيث مساحات الرعى، وحجم القطيع، وارتباط النشاط الرعوى بالاقتصاد السوقى. وعلى مستوى التكامل،

(1) C. De LAVERONNE, Tanger sous l’occupation anglaise d’après une description anonyme de 1674, Paris, 1972, p. 26.

(2) E. LAOUST, «L’habitation chez les transhumants du Maroc central», Hespéris, 1930, pp. 247 – 249.

(3) J. CELERIER, «La transhumance dans le Moyen Atlas», Hespéris, 1927, p. 67.

يبرز وجهان من الانتجاع، انتجاع عمودى بين قمم الجبال وسفوحها، على النحو الذى يظهر فى الأطلسين المتوسط والكبير؛ إذ يقود الرعاة دوابهم، صعودا ونزولا، حسب الفصول[١]. ومن جهة ثانية، انتجاع أفقى بين الجبال والسهول الأطلنطية. ففى جبال الأطلس المتوسط، كانت هجرة المواشى الشتوية، المنتظمة والحيوية، تشكل عنصرا أساسيا فى النسق الإيكولوجى الجبلى. فالسهول، التى هى اليوم خصبة وذات مردودية فلاحية كبيرة، كانت، قبل الاستعمار، فى معظمها غير مزروعة، ومفتوحة للبهائم القادمة من الجبل. هذا ما يتضح مثلا فى منطقة الغرب على بعد أربعين كم من العاصمة الرباط. لقد كانت هذه المنطقة عبارة عن «أزغار» بلغة القبائل الأمازيغية، أى منتجع رعوى شتوى تأوى إليه قطعان قبائل أيت أومالو[٢]. وكذلك الشأن بالنسبة لسهل سايس بالقرب من مدينة فاس الذى كان يستقبل فى فصل الشتاء رعاة وبهائم قبائل كروان وبنى مطير[٣].

أما فى الأطلس الكبير فقد كان الانتجاع مزدوجا. فعلى السفوح الشمالية كانت القبائل تذهب بأغنامها إلى سهل الحوز قرب مدينة مراكش[٤]، وأحيانا إلى أبعد من ذلك، حتى سهل الشاوية على الساحل الأطلنطى[٥]. بينما على السفوح الجنوبية، كان الرعاة ينزلون بدوابهم إلى سهل سوس جنوب المغرب[٦].

وفى المقابل، كانت مراعى قمم الجبال، التى تحمل اسم «أكدال» فى اللغة المحلية، تستقبل مواشى السهول خلال فصل الصيف، منها ما يوفر الكلأ لمواشى السهول الأطلنطية، كما هو الحال بالنسبة للسفوح الشمالية[٧]، ومنها ما يشبع حاجيات الدواب القادمة من

(1) J. DRESCH, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du Grand Atlas, Rabat, 1941, pp. 18 - 22 ; P. PASCON, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1983, p. 164 et n. 15, pp. 176 - 177.

(٢) أبو القاسم الزيانى، الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالى، الرباط، ١٩٦٧م، ص ١٨٩.

(3) J. COULEAU, La paysannerie marocaine, Paris, 1968, p. 105.

(4) J. BERQUE, Les structures sociales du Haut-Atlas, Paris, 1955, pp. 105,108.

(5) J. BRIGNON, Histoire du Maroc, Paris, 1967, p. 260.

(٦) جون دريش، المرجع نفسه، ص ٢٠.

(7) L. MASSIGNON, Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle, Alger, 1906, p. 117.

المناطق شبه الصحراوية، الهاربة من جفاف الصيف، كما هو الشأن بخصوص السفوح الجنوبية المحتضنة لقبائل أيت عطا[1].

ثالثا: حركة ترحال تنتقل على إثرها قبائل بأكملها، بمواشيهم وخيامهم وأمتعتهم، بحثا عن العشب والماء. يتعلق الأمر هنا، بطبيعة الحال، بالقبائل الرحل التى تعيش على إيقاع رحيل دائم ومنظم. فالرحل لا يتنقلون نحو وجهة معينة إلا بعد إرسال مجموعة من ذوى الخبرة للتعرف إلى الأماكن المقصودة ومواردها الطبيعية. وحينما تنفد الإمكانيات، أو يتغير الفصل، يحول الرحل وجهتهم نحو أراض أخرى أكثر سخاءً من حيث الكلأ والماء. هذا ما لاحظه القنصل الفرنسى المقيم بالمغرب فى نهاية القرن الثامن عشر[2].

إن ما يتضح من خلال هذه التنقلات، وتكررها فى الزمان والمكان، هو رسمها فى المدى الطويل لاتجاه جغرافى معين لحركة البشر من الجنوب والجنوب الشرقى إلى الشمال والشمال الغربى، بمعنى آخر من المناطق الجافة والشبه الصحراوية إلى المناطق الخصبة والأطلنطية، مرورا عبر جبال الأطلس. يستخلص المؤرخ الفرنسى هنرى تيراس هذه النتيجة بقوله: «هناك مراحل فى تاريخ المغرب كانت فيها المناطق شبه الصحراوية عامرة بالسكان، لكن مجالها الجغرافى لم يكن يمنحها سوى موارد ضعيفة، إذ إن الجفاف وقلة المراعى كانت تحد من نمو قطعان الماشية، فتضطر القبائل للتنقل باتجاه المجالات الخصبة»[3]. ثم إن حركة التنقل البشرية هذه كانت قد سهلتها مجالات المرور، إذ إن جبال الأطلس المتوسط كانت قليلة الارتفاع وذات كثافة سكانية ضعيفة.

ويتضح هذا الواقع من خلال نماذج كثيرة. على سبيل المثال، قبائل زعير، المستقرة اليوم جنوب مدينة الرباط، وقبائل بنى حسن شمال مدينة القنيطرة، هى فى الأصل من قبائل المعقل العربية التى كانت، فى نهاية العصر الوسيط، مستقرة فى الجنوب الشرقى بالمنطقة الشبه الصحراوية. لكنها بدأت فى التحرك، منذ القرن السادس عشر باتجاه

---

(1) G. SPILLMAN, Les Aït Atta du Sahara et la pacification du Haut Dra, Rabat, 1936, pp. 20 – 21, 36 ; et, D. HART, Dadda Atta and his forty grand – sons. The socio – political organisation of Southern Morocco, Cambridge, 1981, pp. 5 – 6.

(2) L. CHENIER, Recherches historiques sur les Maures et l'histoire de l'empire du Maroc, Paris, 1787, t. 3, p. 102.

(3) H. TERRASSE, Histoire du Maroc, Casablanca, 1950, t. I, pp. 217 – 218.

الأطلس المتوسط. وشيئا فشيئا كبرت حركة التنقل هذه وأخذت أبعادا جغرافية هائلة. ففى القرن السابع عشر وصلت قبائل زعير إلى السهل المحاذى للمحيط الأطلنطى بجوار مدينة الرباط، كما تحركت قبائل بنى حسن فى مرحلة أولى باتجاه منطقة مكناس، ثم فى مرحلة ثانية، خلال القرن الثامن عشر بالخصوص، إلى منطقة الغرب فى الجهة الشمالية الغربية للبلاد[1].

ونرصد الاتجاه نفسه بخصوص القبائل البربرية، على النحو الذى تُظهره اتحادية قبائل زمور. فقد كانت هذه القبائل الصنهاجية تستوطن فى الأصل المناطق الشبه الصحراوية، لكنها انخرطت، هى الأخرى، تبعا لنشاطها الرعوى وحاجتها للمراعى الخصبة، فى هذا التيار الجنوب شرقى/ الشمال غربى. ففى القرن الثامن عشر، خاصة بعد وفاة السلطان إسماعيل، اتجهت نحو مراعى وادى بهت، ومن ثم نحو غرب مدينة مكناس[2].

ومن جهة أخرى، تمثل حركة الانتجاع والترحال، وإن كانت تندرج ضمن نظام إيكولوجى واقتصادى، عنصرا أساسيا فى المعادلة السياسية والعسكرية لتاريخ المغرب قبل الاستعمار، كما سنرى فى المحور الثانى من هذه المساهمة. كلما كانت السلطة المركزية قوية وتوفرت على جيش منظم وقلاع لمراقبة تحركات القبائل، كلما خففت من حدة تنقلاتها، أو استطاعت التحكم فى اتجاهها، وفى المقابل كلما ضعفت الدولة، كلما اتسعت حركة القبائل وامتدت حتى السهول الأطلنطية.

ومع ذلك تبقى هذه الظاهرة نسبية. معنى ذلك أن التفسير القائل بضغط الرحل على المستقرين ضغطا مطلقا، وبالتعارض الدائم بين هؤلاء وأولئك، هو تفسير لا يصح فى كل الحالات، لأن الترحال والاستقرار، كما أكد على ذلك المؤرخ الفرنسى لوسيان فيفر فى كتابه «الأرض والتطور البشرى» مصطلحان يفتقران إلى الوضوح اللازم ويشوشان على تعقيد الواقع[3]. لقد أكدت البحوث التاريخية المرتبطة بمناطق محددة، كمنطقة تافيلالت فى

(1) G. – S. COLIN, «Origine arabe des grands mouvements des populations berbères dans le Moyen Atlas», Hespéris, 1938, pp. 265 – 268.

(2) M. LESNE, «Les Zemmour. Essai d'histoire tribale», Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, 1966, n° 2, pp. 97 – 132.

(3) L. FEBVRE, La terre et l'évolution humaine. Introduction géographique à l'histoire, Paris, 1922, éd. 1949, p. 353.

القرن الثامن عشر، التى اشتغل عليها العربى مزين، أن العلاقات بين الطرفين هى علاقات متغيرة بحسب الشروط البيئية والضرورات التجارية والظروف السياسية. فهى علاقات متوترة تارة، وعلاقات سلمية تارة أخرى، فى شكل تحالف فى بعض الأحيان[(١)].

لهذه الأسباب يميل الدارسون إلى مسألة التكامل الاقتصادى. نحن نعلم أن الترحال لا يتناسب وادخار المنتجات الزراعية. والحال أن الناس يحصلون على هذه المواد بواسطة التبادل، إذ يقتنى الرحل مواد الزراعة فى مقابل مواد الرعى. وأحيانا يقدم الرحل خدمات جليلة للمزارعين فى أوقات الجفاف والقحط بتوفير ما تجود به الماشية من أغذية، كما حصل سنة ١٦٥٩م عندما انتشر الجوع فى أوساط مزارعى الواحات فى الجنوب الشرقى من البلاد[(٢)]. وكان يحصل أيضا أن تتحول الواحات إلى مراكز يخزن فيها الرحل ما يملكونه من زرع ومواد أخرى[(٣)]. كما لعبت الأسواق الأسبوعية، المقامة عادة عند قدم الجبل، دورا مهما فى التقريب بين أصحاب الزرع وأصحاب الضرع[(٤)].

٢ - تنقلات سياسية واجتماعية: البحث عن التوازن

ساهمت السياسة القبلية التى نهجتها السلطة المركزية قبل الاستعمار فى تنقل القبائل من منطقة إلى أخرى، إذ كانت الدولة تسعى، من خلال عملية ترحيل البشر للانتشار أو الاستقرار فى مجالات جغرافية أخرى، إلى إعادة ترتيب الأمور الترابية بحثا عن توازن سياسى وعسكرى، وكانت هذه السياسة قد حددت ملامح كثيرة من التاريخ السياسى والاجتماعى للمغرب.

---

(١) العربى مزين، منطقة تافيلالت. مساهمة فى تاريخ المغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، الرباط، ١٩٨٧م، ص ٢٧٠ - ٢٧١، ٢٧٣ - ٢٨٠.

(٢) محمد أعفيف، منطقة توات فى القرن التاسع عشر، رسالة جامعية مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٢م، ص ١٤٩ - ١٥١.

(3) B. ROSENBERGER, Société, pouvoir et alimentation au Maroc précolonial, Rabat, 2001, pp. 57 – 58.

راجع أيضا أحمد مزيان، فكيك، مساهمة فى دراسة المجتمع الواحى، ١٨٤٥م - ١٩٠٣م، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ٢١٠.

(٤) راجع دراسة جون فرانسوا تروان الجغرافية حول الأسواق ودورها الاجتماعى والاقتصادى:
J. F. TROIN, Les souks marocains. Marchés ruraux et organisation de l’espace dans la moitié nord du Maroc, Aix – en – Provence, 1975.

لقد شكلت القبيلة وحدة اجتماعية وسياسية فى الوقت نفسه. فمن الناحية الاجتماعية تميــزت القبيلة فى المغرب بتعقيد كبير، وتباينت بنيتهــا بتباين انتمائها اللغوى والإثنى (عربية أو بربرية)، ونمط عيشــها (مســتقرة أو متنقلة)، علاقتها بالدولة (عسكرية حليفة للدولة أو خاضعة للجباية)، أما من الناحية السياســية فقد كانت القبيلة، بالنســبة للدولة أداة سياسية وعسكرية لخلق نوع من التوازن فى تدبير الشؤون الترابية للبلاد(١). لقد تناول الباحــث الإنثروبولوجى إرنســت كيلنر هــذا الموضوع، مركزا على علاقــة الدولة بالقبائل من خلال رســم جبائى وسياســى، لا يخلو من أهمية، وهذا الرســم يقوم على ثلاث دوائر متراكــزة: دائرة أولى، وهى دائرة داخلية مركزية، تمثلها القبائل الحليفة للمخزن، والتى تقــوم بجباية الضرائب، وينعتها كيلنر بِـ «كلاب الحراســة»، ودائــرة ثانية، وهى دائرة وســطى، تتمثل فى القبائل الغارمة، التى تحرســها قبائل المركز، ويصفها بِـ «القطيع»، وأخيرا، دائرة ثالثة، وهى دائرة خارجية، تتمثل فى القبائل الرافضة للسياســة الجبائية للمخزن، وينعتها بِـ «الذئاب»(٢).

ويرى عبد الأحد السبتى، وهو يقارب هذه الاستعارة، التى تُذكِّر ببعض الصيغ المأثورة فــى كتب الآداب الســلطانية، أن هذا الرســم كان يعرف فى بعض الأحيــان انقلابا فى الأدوار، لاســيما بين دائرة المركز ودائرة الخارج، خاصة خلال القرن التاســع عشــر، مع «مفارقة ظاهرة الطرف القريب من المركز، والبعيد مجاليا عن موقع الهامش». فبالقرب من مدينة فاس كانت قبيلة غياثة تشكل مصدر قلق كبير بالنسبة للمخزن، خاصة فى الأوقات التى تفتر فيها سلطة هذا الأخير، وبالقرب من مدينة مكناس كانت قبيلة بنى مطير تضيق على أهل المدينة وتنهب أســواقها، وبالقرب من مدينة الرباط كانت قبيلة زعير تغير على المدينة وتعيث فسادا فى الطرقات والجنان(٣).

تشير المصادر الإخبارية، العربية بشكل خاص، إلى هجرات قبلية هائلة تمت فى سياق هذه السياســة الجبائية والاســتراتيجية الرامية إلى إعادة ترتيب تحالفات السلطة المركزية

---

(١) محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، تعريب محمد حبيدة، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٢٤ – ٢٦.

E. GELLNER, Saints of The Atlas, London, 1969, pp. 1 – 5.

(٣) انظر عبد الأحد السبتى، بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق فى مغرب ما قبل الاستعمار، الرباط، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦ – ٢٥٧.

مع القبائل وتوازنات البلاد. لقد كانت الدولة، أو ما يعرف بالمخزن فى التاريخ السياسى للمغرب، وهى تسعى إلى تكسير شوكة القبائل، وتقليص نفوذ الزعماء، من جهة، ودعم نفوذها من جهة ثانية، تجبر القبائل على هجرة أراضيها والتنقل إلى أراض أخرى بعيدة. فبأمر من السلطان وتحت التهديد العسكرى كانت قبائل بأكملها تُهجَّر، وتُقسَّم إلى عدة كيانات أو قيادات، وتُوزع على مجالات شاسعة فى بعض الأحيان.

يصعب على الباحث تتبع هذه الهجرات، وضبط مراحلها، ورسم اتجاهاتها، لأن المصادر لا تمكن من ذلك بصفة منسقة. لكن الخطوط العريضة لهذه الهجرات التى كانت تتم بإيقاع بطىء وفى شكل مجموعات صغيرة[1]، تبقى ممكنة، بحسب ما تتيحه الإخباريات. لنأخذ مثلا قبائل منطقة الحوز، المجاورة لمدينة مراكش خلال القرن الثامن عشر، التى كانت تشكل مصدر قلق سياسى وعسكرى. فقد رحَّل المخزن قبائل زرارة وشبانات إلى منطقة بنى يزناسن فى شمال شرق البلاد، بعيدا عن أراضيهم بحوالى سبعمائة كم. وهجَّر المخزن أيضا قبائل أولاد أبى السباع إلى منطقة سوس جنوبا، ثم بعد ذلك إلى الصحراء، وقبائل مجاط إلى السهول المجاورة لمدينة فاس، وقبائل أيت يمور إلى سهل تادلة[2]. لقد حرمت السلطة المركزية قبائل كثيرة من أراضيها الخصبة ورُحلت إلى مناطق أخرى لإرضاء قبائل حليفة تم استقدامها إلى هذه الأراضى[3]، أو لمضايقة قبائل أخرى معادية. هذا ما حصل، على سبيل المثال سنة ١٦٧٩م، لما قام السلطان إسماعيل بنقل «عرب الشبانات وزرارة من الحوز... وأنزلهم بوجدة ثغر المغرب، وكتبهم فى الديوان، وقيد عليهم العياشى بن الزوغر الزرارى، وأمره بالتضييق على بنى يزناسن، إذ كانوا شيعة الترك، فكانوا يغيرون عليهم، ويمنعونهم من الحرث فى بسائط أنكاد»[4].

لقد شكلت عمليات ترحيل القبائل ظاهرة سياسية وعسكرية كبيرة على مدى تاريخ المغرب، إذ ارتبط قيام الدول المتعاقبة على الحكم بحركة القبائل وتنقلاتها، منذ دولة

(١) نفسه، ص ٢٦٣.

(٢) انظر أبو القاسم الزيانى، الترجمانة الكبرى، مرجع سابق، ص ٣٤؛ محمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العرمرم الخماسى فى دولة أولاد مولانا على السجلماسى، مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، د ٩٦٥، ص ١٣٣.

(٣) عبد الأحد السبتى، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص ٢٥٧ – ٢٥٨.

(٤) أبو القاسم الزيانى، البستان الظريف فى دولة أولاد مولاى الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، الرباط، ١٩٩٢م، ص ١٦٣.

الموحدين الذين رحّلوا قبائل بنى هلال من إفريقية إلى السهول الأطلنطية فى القرن الثانى عشر، ومرورا بدولة بنى مرين، الذين كانوا فى الأصل قبائل رحل قبل أن يستقروا فى منطقة فاس، ودولة الأشراف السعديين الذين جروا معهم، فى زحفهم نحو مدينة فاس، فى أواسط القرن السادس عشر، قبائل معقل العربية وأنزلوهم بمنطقة الغرب، وانتهاءً بالسلاطين العلويين الذين هجَّروا قبائل حوز مراكش إلى الجهة الشمالية الشرقية للبلاد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. ففى عهد السلطان إسماعيل (١٦٧٢م – ١٧٢٧م) كانت هذه السياسة قد أصبحت ممنهجة لترتيب تحالفات الدولة مع القبائل، ومضايقة قبائل أخرى لتحقيق نوع من التوازن فى تدبير شؤون البلاد[١].

ولتوضيح صورة هذه السياسة القبلية على عهد العلويين قبل المرحلة الاستعمارية نورد نموذجا للعلاقة التى كانت تجمع بين السلاطين وقبائل أيت إدراسن، إحدى أبرز الاتحاديات القبلية البربرية. ففى نهاية القرن السابع عشر كان السلطان إسماعيل قد استطاع إخضاع هذه القبائل، إذ نزع سلاحها وثبتها فى الأراضى المجاورة لمدينة مكناس، وكلفها بحماية الطريق الرابطة بين فاس وتافيلالت، مقابل امتيازات جبائية[٢]. وبعد وفاة هذا السلطان ناصرت هذه القبائل، خلال القرن الثامن عشر، السلطانين عبد الله ابن إسماعيل، وخلفه محمد بن عبد الله، إذ أصبح أيت إدراسن «برابرة الدولة وتحت قهرها وغلبتها» على حد تعبير الإخبارى أبو القاسم الزيانى[٣]. وفى نهاية هذا القرن، وفى ظروف النزاع على الحكم بين الأمراء، لعبت اتحادية أيت إدراسن دورا كبيرا فى انتقال الحكم إلى السلطان سليمان. لكن اللافت للانتباه هو أن هذا التحالف الذى دام لأكثر من قرن تغير بتغير مجرى الأحداث السياسية والعسكرية، إذ أدار هذا السلطان ظهره لهذه القبائل فى مطلع القرن التاسع عشر، وتحالف مع قبائل بنى حسن العربية[٤].

والجدير بالذكر أن انعكاسات هذه السياسة القبلية على الحياة الزراعية كانت سيئة للغاية. فكلما انطلقت حركة التهجير هذه اندلعت أزمة فلاحية كبيرة، لأن مناطق الاستقبال

---

(1) F. De LACHAPELLE, «Le sultan Moulay Ismaïl et les tribus Sanhaja du Maroc central», Archives Marocaines, vol. 28, 1931, p. 29.

(٢) عبد الأحد السبتى، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٣) أبو القاسم الزيانى، الترجمانة الكبرى، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٤) حول هذه السياسة القبلية المتقلبة راجع:

محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص ١٨٠ – ١٨١.

كانت تتعرض للنهب، فيضطر أصحاب الأرض للهجرة بدورهم نحو أراض أخرى. وبذلك يتضرر الاقتصاد القروى برمته، إذ تضطرب الدورة الزراعية، وتفسد عملية الإنتاج، وتنهب المدخرات، ويتوقف تزويد السوق بالمنتجات الفلاحية، وتسوء أحوال الأسر، وتكثر المآسى. ولنا فى مصنفات فقه النوازل شهادات كثيرة حول هذا الموضوع(١).

كانت القبائل المكرهة على الهجرة تسعى فى مناسبات كثيرة، لاسيما فى الأوقات التى يفتر فيها نفوذ المخزن، إلى العودة إلى أراضيها الأصلية. وقد تسبب هذا الأمر فى قلاقل سياسية وعسكرية كثيرة. نقرأ فى مراسلة القنصل الفرنسى بالمغرب، لويس شينى، بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٧٧٨م ما يلى: «قبيلة من قبائل منطقة الحوز فى الجنوب، التى كانت قد هجرت فى الماضى أراضيها الخصبة، وشتتها المخزن فى أراضى رديئة بمنطقة تامسنا بالقرب من الرباط، تقوم اليوم ببعض المحاولات للرجوع إلى أراضيها الأصلية»(٢). لكن عندما تتمكن القبائل من تحقيق هذه الرغبة وتعود فعلا إلى الأراضى الأصلية تصطدم بمشكلة أخرى، لأن هذه الأراضى تكون قد عمرتها قبائل أخرى نازحة من منطقة مجاورة. وهكذا تتعقد الأمور. ففى مرحلة أولى تدلى القبيلة العائدة بمختلف الحجج والشهادات، الشفهية فى الغالب، لاسترجاع ممتلكاتها، وفى مرحلة ثانية ينشب الصراع بين الأطراف المتنازعة، وتتوسع دائرة النزاع عندما تتشعب التحالفات بين القبائل بعضها مع بعض من جهة، وبعضها ضد البعض الآخر من جهة أخرى. وإذا تدخل المخزن لمساندة هذه القبيلة ضد تلك تقوم الحرب وتدخل البلاد فى وضعية سياسية معقدة(٣).

---

(١) عبد العزيز الزياتى، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، د ١٦٩٨م، جـ١، ص ٢٨١، جـ٢، ص ١٠٦؛ أحمد الرسموكى، فتاوى علماء جزولة، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، ك ٧٢٥، ص ٨٦؛ عيسى السكتانى، النوازل، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، جـ ١٠١٦، ص ١٣٧ – ١٣٨.

(2) L. GRILLON, Un chargé d'affaires au Maroc. La correspondance du consul Louis Chénier (1767 – 1782), Paris, 1970, p. 697.

(٣) انظر محمد العربى بردلة، النوازل، طبعة حجرية، فاس، ١٣٤٤ هجرية، ص ١٠١. بالإضافة إلى حركات التنقل هذه، المرتبطة برهانات سياسية واستراتيجية، يمكن ذكر الأزمات البيولوجية، ولاسيما الأوبئة، التى كانت تتسبب فى هجرات جماعية كبيرة كما حصل مثلا سنة ١٦٢٧م لما «هاجرت أكثر من سبعة آلاف عائلة مدينة مراكش هربا من الموت» حسب شهادة أبى زيد عبد الرحمن التمنارتى، الفوائد الجمة فى إسناد علوم الأمة، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، د ٣٦٩٣، ص ٣٤. راجع أيضا بخصوص وباء ١٦٧٩م – ١٦٨٠م: أبو القاسم الزيانى، البستان الظريف، مرجع سابق، ص ١٦٣.

يمكــن القول، بناءً على ما تقدم، إن الترحال لم يكن ظاهرة بنيوية فى تاريخ المغرب. لقد ارتبط بضرورات إيكولوجية وبإكراهات سياسية واجتماعية. إن ما تؤكده معظم الإشارات التى توفرها النصوص التاريخية هو ارتباط أهل القرى بالأرض. كلما كانت الموارد الطبيعية كافية، وكلما كانت الظروف السياســية والاجتماعية مواتية، كلما أبدى الناس رغبة أكيدة للاســتقرار وحرث الأرض ورعاية البهائم فى المدار المجاور لمقر ســكناهم. ويبقى أهم مثال علــى هــذا الأمر، والذى يربط الماضى بالحاضر، هو قبائل زمور وقبائل زعير المســتقرة فى الوقت الراهن بمنطقتى مكناس والرباط، والتى كانت بالأمس القريب، كما ســبقت الإشارة إلى ذلك، من القبائل الرحل المتنقلة فى مساحات جغرافية شاسعة.

❑❑❑